الفصل الثاني

وضع الشيخ مكتبته تحت تصرفي . لقد شعرت مع الأيام أن الشيخ اتخذني ولداً له عوضاً عن ولده الراحل . حتى أنه أعطاني مفتاح غرفته التي كان لها باب خارجي يطل على الدرج قائلاً لي : (أحياناً لا أكون هنا ، فادخل واسترح واقرأ ما تشاء . فمن لي في هذه الحياة سواك ؟) .

مكتبة الشيخ كانت غنية بالفعل ، فيها من بعض ما فيها كتب نوادر ، ومكتبة كهذه لا يمكن تكوينها إلا مع مرور الأيام ، وواضح أن الشيخ قضى في تكوين مكتبته معظم عمره .

قلت له يوماً ، وأنا أقرأ عناوين بعض الكتب :

ـ يقولون أن لا جديد تحت شمس الفلسفة بعد أفلاطون وأرسطو ، فكل الفلاسفة من بعدهما عالة عليهما ، فما رأيك في هذا القول ؟

كان جالساً يكتب ، فرفع عينيه وألقى على نظرة من فوق نظارتين قديمتين اللتين يضعهما على رأس أنفه ، ثم خلع نظارتيه وأمسك بهما يهزهما قائلاً :

ـ طرق العقل مسدودة يا بني . هكذا قال الإمام الغزالي . لقد وضع كتابه تهافت الفلاسفة ليثبت للفلاسفة أن جميع ما بنوه متهافت . قابل الحجة

بالحجة . المشكلة يا بني أن كل فيلسوف يبني بناءه الخاص ، بناء قوياً متماسكاً متكاملاً ثم يضع على مدخله لافتة كتب عليها (الحقيقة) ومع هذا فمعظم الفلاسفة يناقض بعضهم بعضاً . هذا يدحض حجج ذاك ليأتي بحجج أخرى . . . وما دام الأمر كذلك فأية قيمة تبقى لهذا العلم المسمى علم المنطق ؟ العلم لا يكون علمين ولا ثلاثة ، إنه علم واحد وهو ههنا .

وأشار إلى صدره . .

ووضع من ثم نظارتيه على عينيه ، وبحث في أوراق موضوعة على طاولة قريبة منه ، ثم أخذ بعضها وأعطانيها قائلاً :

ـ إقر أ ، إقرأ هذه الرؤ يا التي رأيتها منذ ليال ، إقرأها واقرأ تعبيرها .

أخذت الأوراق ، وجلست في زاوية من الغرفة تغمرها الشمس وشرعت في القراءة . كان خط الشيخ رديئاً ، حروفه كبيرة ، والألف واللام والكاف مائلة إلى حد كبير ، كما أنه وضع للسين والشين أسناناً فبدا الخط أشبه بخط أهل المغرب . . وإلى هذا فلم يكن بين الجمل نقاط ولا فواصل ، كما أن القفز من فقرة إلى أخرى كان عشوائياً .

وجعلت أقرأ ما يلي :

رأيت في المنام أني صائم ظمآن أنتظر بلهفة حلول موعد الإفطار ثم جئت محلاً كبيراً هو وكالة للسيارات الأمريكية الفاخرة حيث جعلت أستعرض السيارات الجديدة . ودخل المحل صاحب الوكالة وكان بديناً بطيناً شاحب الوجه يتفصد العرق منه . لقد توقف يلهث وهو يقول لشريكه مشيراً إلى بطنه : هذه الوليمة آذتني . إن بطني تؤلمني لقد قدموا صفائح باللحم ولكن اللحم كان فاسداً ولا شك . . وغادرت الوكالة متوجهاً إلى ساحة السبع بحرات حيث كان الماء يتدفق منها ، وهناك دخلت جامعاً قريباً فإذا في صحنه رياضيون مغاربة يلعبون لعبة كرة القدم . . ثم خرجت من الجامع متوجهاً إلى حي ركن الدين باحثاً عن رجل كنيته أبو إبراهيم ، وهو نحّال ممتاز لا مثيل للعسل الموجود

لديه . ولحق بي نحال آخر جعل يقنعني بأن عسله جيد غير مغشوش ، وقدم لي عينة قائلاً : (ذق واحكم) ، فقلت له : (أسمع يا هذا . . أنا أعرف أهل هذه المدينة فليس فيها أحد يبيع عسلاً جيداً غير مغشوش . لا تحاول أن تقنعني . العسل الحقيقي موجود عند أبي إبراهيم فقط) . فتركني الرجل يائساً . وتابعت سيري .

صارت الطريق صعبة تصعد في جبل ، وجاهدت لقطعها . حتى رأيت أخيراً أبا إبراهيم جالساً في علية مع أقارب له . وانتهت الطريق ، وكان علي أن أتسلق عموداً للوصول إلى إبراهيم . وبرز شخص مجذوب تسلق العمود وبلغ أبا إبراهيم . . وهنا انثنيت عائداً فلقيني شيخ ظهر من باب جامع فقال لي : ما هذا النزاع للحصول على العسل ؟ إليك هذه البيضة إشرب صفارها دون البياض ففيه شفاء للصداع . ولما أخذت منه البيضة رأيت عبارة كتبت عليها وكانت العبارة (ذر سد يمي) .

كان هذا نص الرؤيا وتحته كتب عنوان : (التعبير) ، وجاء فيه :

ظمأ الصائم ظمؤه إلى العلم اليقيني ، ومجيئي وكالة السيارات الأمريكية إشارة إلى فلسفة الغرب التي تعتمد علم المنطق لمعرفة الحقيقة . ودخول صاحب الوكالة البدين البطين المتعب المتفصد عرقاً إشارة إلى نتيجة المتتبع لفلسفات الغرب التي رمز إليها بالوليمة والتي حاولت كشف باطن الوجود أو ما يقال له الماورئيات أو الميتافيزيقا . ولقد فشلت فلسفات الغرب في تحقيق هدفها وأشير إلى هذا بالألم الذي شعر به صاحب الوكالة في بطن ، والبطن الباطن ، وكان الطعام المقدم في الوليمة صفائح لحم إشارة إلى إعتماد الحواس ورمز إليها باللحم .

وخروجي من الوكالة ومجيئي السبع بحرات كناية عن عملية التطهر الضرورية لغسل الرين وجلو المرآه . ودخولي الجامع مباشرة الخلوة الصوفية ، ودل على هذا وجود جماعة من الرياضيين المغاربة وهم يلعبون بالكرة ، فالإشارة إلى الرياضة الصوفية ، إذ اشتهر المغاربة بالطرق الصوفية . وتوجهي إلى حي

ركن الدين طلبي حقيقة اليقين . . وسيري على الطريق الوعرة رمز للمجاهدات التي يعيشها سالك الطريقة الصوفية من صوم وصلاة وقيام الليل وأذكار وما إلى ذلك . . أما طلبي العسل من رجل كنيته أبو إبراهيم ففيه إشارة إلى نشدان السالك انفتاح الحقيقة له عن طريق تفجر الأنوار الإلهية في قلبه ، ورمز إلى هذه الأنوار بأبي إبراهيم ، وإبراهيم نبي التوحيد وعرف بإبراهيم الخليل أي الذي تخلله الله . أما محاولة بائع العسل الآخر إقناعي بالشراء منه فهي محاولات غير الصوفيين الذين يدعون أن عندهم علم الحقيقة ، وإصراري على أن العسل غير المغشوش هو الموجود عند أبي إبراهيم فقط فهو ثقتي بأن كل علم غيبي لا يتفجر من نبع الذات الداخلية عن طريق سطوع الأنوار في الذات هو علم لا يركن إليه ولا يمكن الاعتماد عليه .

ورؤيتي أبا إبراهيم وصحبه إشارة إلى التجلي الذاتي مع التجلي الأسمائي ، وانقطاع الطريق إلى أبي إبراهيم مع وجود عمود إشارة إلى أن الرؤية الذاتية لله مستحيلة ، وأن هناك تجلياً فقط للذات بواسطة الأسماء . . ودل على هذا ظهور المجذوب إشارة إلى إنجذاب السالك إلى مقام الصعق وهو ما يسمى المعراج . وظهور الشيخ في باب الجامع الذي أشار إلى البيضة ونصحه إياي بأكل الصفار دون البياض ففيه تأكيد أن من ينشد علم اليقين عليه أن يطرح العالم المادي ودور الحواس والعقل . ويرمز إلى ذلك كله ببياض البيضة ، والتوجه إلى الذات الداخلية ، أي القلب ، وقد رمز إليها بصفار البيضة ، ففي هذا علاج الصداع الناجم عن محاولة معرفة الحقيقة الوجودية . أما معنى عبارة الذر السديمي المكتوبة على قشرة البيضة ففيها إشارة إلى ظهور العالم المادي من العالم الروحي .

كان هذا تعبير رؤ يا الشيخ الذي سألني :

ـ هل أعجبك التعبير ؟

قلت متعجباً :

ـ هذا تفسير عجيب ما سمعت به في نظريات تفسير الأحلام المعروفة مثل تفاسير فرويد ويونغ وإدلر .

والتقت عيناي فجأة عيني الشيخ فلمحت فيهما نظرة شبه مستهزئة فتابعت قائلاً :

ـ عفواً ، أنت لم تسمع عن هؤلاء ، فرويد و . .

هز برأسه وهو يقاطعني قائلاً :

ـ بلى بلى ، لقد قرأت عن فرويد مؤسس التحليل النفسي .

قلت :

ـ أنا شخصياً لا أتوقف كثيراً عند نظريته في تفسير الأحلام المبنية على العقد الجنسية . ولكن هناك يونغ وإدلر وخاصة إدلر ، فنظريته مشهورة وواقعية .

ـ وماذا يقول إدلر ؟

ـ يقول إن أحلامنا نتيجة مخاوفنا ، أو توقعاتنا وآمالنا ، أو انطباعاتنا عن الأحداث الخارجية .

أمسك الشيخ بسبحته وجعل يساقط حبّها الكبير ، ثم نظر إلي من طرف عينيه وسألني :

ـ إذا سمحت ، هل بوسعك أن تفسر لي المنام الذي رويته لك ؟

أجبت مبتسماً :

ـ أحاول .

ـ إفعل إذن .

فكرت قليلاً ثم قلت :

ـ الصيام والعطش عطشك إلى شيء معين ، ومجيئك إلى وكالة السيارات الأمريكية يحدد ما أنت محتاج إليه وهي الراحة . (وتجرأت فسألت الشيخ) ، قل لي يا سيدي هل تحس كثيراً بالتعب وتحلم بالراحة ؟

هز رأسه وأجاب :

ـ أجل ، شكواي وأنا في هذه السن التعب ، تعب شديد مضن ، وبالفعل أنا أحلم بالراحة .

قلت فرحاً :

ـ أرأيت يا سيدي الشيخ ؟

قال هو :

ـ وبعد ، وبعد ؟

عدت أفكر ثم تابعت :

ـ وظهور صاحب الوكالة وشكواه من صفائح اللحم التي أكلها فيدل على خوفك من هذا اللون من الطعام بالذات .

عاد إلى هز رأسه ، وعلق قائلاً على ما قلت :

ـ جيد ، أنا بالفعل أخشى صفائح اللحم .

ـ ولا تأكل منها كثيراً .

بدا على وجهه التعجب وقال :

ـ صحيح والله ، أنا لا آكل كثيراً منها .

ـ لأنك إذا أكلت أصبت بعسر الهضم .

ـ أجل ، أجل ، والله إنك مفسر أحلام ممتاز . . وبعد . . ما معنى قدومي إلى ساحة السبع بحرات ودخولي الجامع ؟

ـ أنت تحب الجامع .

ـ أجل .

ـ وأنت مولع بالطهارة .

ـ نعم ، نعم .

ـ وأنت معتاد على الذهاب إلى الجامع بعد الإفطار في رمضان .

ـ هذا صحيح .

ـ الأمر واضح إذن ، لقد عبّر منامك عما تحب .

ضيق عينيه فجأة وقال :

ـ والرياضيون المغاربة الذين كانوا يلعبون في الجامع ، ما تفسير هذا ؟

فكرت ثم قلبت شفتي وقلت :

ـ ليس من الضروري أن يكون لكل ما نراه في المنام معنى .
قال متحدياً :

ـ ها أنتذا تتراجع ، ولن أسمح لك بالتراجع . إمض قدماً ، حاول أن تفسر ، حاول . . إستعن بأصحابك ، فرويد والآخرين .

ـ حسناً ، هل بإمكاني أن أسألك عما إذا كنت مغرماً بلعبة كرة القدم ؟

هنا انفجر الشيخ ضاحكاً . علا ضحكه كأنه فرقعة . لقد ظل يضحك غير متمالك نفسه تقريباً حتى أن الدمع ظهر في عينيه . . حتى إذا فتر ضحكه قال وهو يشير بسبابته إلى صدره :

ـ أنا الشيخ عيسى مولع بكرة القدم ، أنا ؟
ـ لم لا ؟ .

ـ حسناً ، وما معنى توجهي إلى حي ركن الدين ولحوق بائع العسل بي وحواره معي . ما معنى هذا كله ؟
قلت وكأنني أجازف بإلقاء نفسي من حالق :
ـ معناه أنك تحب العسل .
ـ هذا صحيح .

ـ وأنت مؤمن بأن العسل غير المغشوش موجود عند شخص كنيته أبو إبراهيم .
ـ والله ما تقوله صحيح ، كيف عرفت هذا ؟

ـ هذا واضح ، وواضح أنك لا تشتري العسل إلا من هذا الرجل ولا تصدق بأنه يوجد عسل يضاهي العسل الموجود عند هذا الرجل حتى وإن اجتمع نحالو الأرض جميعاً بقصد إقناعك .
ـ وما معنى ورود موضوع العسل بالذات في منامي ؟

ـ معناه أنك مؤمن بأن في العسل شفاء وأن لا غنى لك عنه . بدا الاهتمام على وجهه وضاقت عيناه وظهر فيهما معنى بعيد ثم قال :

ـ لا بـأس ، بل جيـد ، الآن بدأت أقتنـع بنظريـات أساتـذتك في تفسـير الأحلام . ولكن قل لي ، لماذا ظهر النحال أبو إبراهيم بعيداً ولم أستطع الوصول إليه في حين ظهر الشخص المجذوب ووصل .

ـ هذا يعني أنك خائف من أن تفقد هـذا النحال ، وأنـك إذا فقدتـه فلن تجد له مثيلاً ، ولأنه في رأيك لا نظير له فلقد رأيته في المنام عالياً بعيداً .

ـ والمجذوب ؟

ـ قلت لك ليس من الضروري تفسير كل ما ورد في المنام .

ـ هذا يعني أنك عاجز عن تفسير ظهور المجذوب في منامي .

ـ ربما .

ـ وظهـور الشيخ ونصحـه إياي في أن أشـرب صفـار البيض دون بياضه ابتسمت بخبث وسألته :

ـ صـارحني يا سيـدي ، هل سبق أن قـرأت وصفـة كهـذه في أحـد كتب الطب العربي ؟

دهش . دهشته فاقت التصور . ومضت عيناه وطفت عـلى محياه انـطباعـة طفلية ، وجعل يردد :

ـ أصـاب ، والله أصاب ، والله أنت عـظيم . صـدق أنني قـرأت وصفـة كهذه في كتاب للطب العربي بالفعل .

أخذني الزهو ، ولم ألبث أن قلت واثقاً :

ـ العقل الباطن يـا سيدي يختـزن الكثير ، يختـزن ثم يخرجـه في المنامـات وأحياناً في أحلام اليقظة . منامك كله موضوع قلقـك على صحتـك واهتمامـك براحتك وبالغذاء الجيد .

ـ ومـا معنى عبارة الـذر السديمي التي كـانت مكتوبـة على قشـرة البيضة ؟ فكرت من جديد ثم سألته :

ـ هل مرت عبارة كهذه في أحد الكتب التي قرأتها ؟

ـ ذر سديمي ؟

ـ أجل .

ـ ما أظن .

ـ في أحد كتب ابن عربي مثلاً . أظن أنه قد وصف في أحد كتبه كيف انبثق الوجود من بيضة نورانية .

ابتسم ، لكن بتهكم ، وقال :

ـ هذا صحيح ، لقد قال ابن عربي هذا ، ولكن ابن عربي لم يقل عن الوجود إنه ذر سديمي .

ـ لا بد أنك قرأت العبارة في أحد الكتب العلمية . (وألقيت نظرة على إحدى خزائن المكتبة) ، فأنا أرى أن لك اهتماماً بالكتب العلمية أيضاً .

تابع يداعب حب سبحته شاخص الطرف . لقد نظر في الفراغ متأملاً . ثم قال :

ـ المهم أنك لا تعترف بأن المنامات يمكن أن تعلم الإنسان شيئاً .

أسرعت أنفي التهمة عني قائلاً :

ـ أنا لم أقل هذا .

ـ أساتذتك على الأقل لا يعترفون ، فرويد والآخرون الذين ذكرت أسماءهم . إنهم يعترفون بوجود النفس ، ولكنهم لا يعترفون بوجود عالم روحي كائن في النفس يعلمها ما لم تعلم .

وتوقف قليلاً عن الكلام ، ثم تابع قائلاً :

ـ أنت مؤمن يا أستاذ ؟

ـ طبعاً يا سيدي .

ـ ومؤمن بما جاء في كتاب الله ؟

ـ بالطبع .

ـ حسناً ، كيف تفسر سورة يوسف الذي قص على أبيه أنه رأى في منامه

أحد عشر كوكباً ، رآهم لـه ساجـدين ؟ ولم أوصاه أبـوه ألا يقصص رؤ ياه عـلى إخوته فيكيدوا له ؟ ثـم كيف تفسر تأويل يوسف لمنامي السجينين اللـذين كانا معه في السجن ، إذ ذكر الأول أنه رأى في منامه أن الطير تأكل من رأسـه ففسره يوسف أنه سيصلب ، والثاني الذي رأى أنه يسقي ربه خمـراً فبشره بـالخروج من السجن والالتحاق بخدمة سيده ؟ ثم كيف تفسر تفسيره للمنـام الذي رآه عـزيز مصر وقد رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف فقال يوسف تـأتيكم سبع سنين خصبة فوفروا القمح ثم تصيبكم سبع سنين عجاف فتأكلون القمح الذي وفرتم . . أفلم يرد هذا في القرآن يا أستاذ ؟

ـ أجل يا سيدي .

ـ هل قال الله في كتابه إن المنامات عبارة عن مخاوف وضغـوط وانطبـاعات للأحداث وتوقعات ومتنفس للآمال وما شابه ؟

ـ لا .

ضم حب سبحته في قبضتـه وتابع قائلاً :

ـ ألا فـاعلم يا مـطاع أنكم أخذتم علومكم ميتـاً عن ميت وأخذنـا علمنا عن الحي الذي لا يموت .

أخذت الأوراق التي قرأتها ونظرت فيها متأملاً ، ثم قلت :

ـ ما معنى ظهور العالم المادي من العالم الروحي ؟

ـ ولماذا استوقفتك هذه العبارة ؟

ـ لأن هذه إحدى مشاكل الفلسفـة المستعصية التي لم يـوجد لهـا حل حتى الآن . فهنـاك مدرستـان ، المثاليـة وزعيمها أفـلاطون وتقـول إن عالم المثـل هـو الحقيقي وأن العالم المادي وهم غير حقيقي وهو ظلال عالـم المثل . وهناك المـادية التي لا يؤمن أعلامها بغير العالم المادي ويجعلون الميتافيزيقا جزءاً من الفيزيقا فلا عالم موجود سوى هـذا العالم . . وحتى الإشـراقيون من الصـوفية لا يقـولون إلا بعالم الأنوار المحضة وان عالم المـادة أو العالم المـظلم هو نقص في الأنـوار بل غـير موجود .

عادت الابتسامة الهادئة المفعمة ثقة ترتسم على شفتيه الرقيقتين ثم قال :

ـ هل تعلم أنني لطالما ترددت أنا نفسي بين هاتين المدرستين بالذات ؟

ـ وماذا كانت النتيجة ؟

ـ لقد رأيت رؤيا .

(عدنا إلى الرؤى والمنامات) ، هكذا قالت عيناي ، وعلم هو نظرتي فقال :

ـ أجل عدنا إلى الرؤى . لقد رأيت في المنام شخصاً كنيته أبو أنور يبيع جبناً ، ولقد وقف إلى جانبه ابنه أنور وعلى عينيه نظارة ، ثم ظهر شقيق لأنور بسط يده فإذا موجات كهربائية تخرج من رؤوس أصابعه ، وإذا الموجات تتكثف على شكل سحب صغيرة كالدخان .

وسكت الشيخ فانتبهت كأنني تلميذ في الصف سمع جرس انتهاء الحصة على غير توقع . لقد نظرت إلى الشيخ مستفسراً ، ثم قلت :

ـ أهذا هو المنام ؟

ـ أجل .

ـ وماذا يعني ؟

ـ حاول أن تعرف .

ـ أنا ؟

وضربت بيدي إلى صدري وكلي عجب . .

ـ أجل أنت ، حاول أن تعبّر . سأعلمك هذا العلم من الآن فصاعداً ، هيا حاول ، حاول .

فكرت في ما سمعت . . أبو أنور وأنور وشقيق أنور وكهرباء وسحب . وقلت بعد تردد :

ـ الموضوع ذو صلة بالنور .

انبسطت أساريره وقال :

ـ جيد ، تابع تابع .

ـ يذكرني الموضوع بصاحب نظرية النور شيخ الإشراق . . لقد تحدث عن النور القاهر والنور الاسفبهذ أي العقل الفعال والنور المحيط .

قال بحماسة :

ـ رائع ، شيخ الإشراق السهروردي الشهيد لا المقتول . . تابع . .

ـ إذا عبّرنا الأب قلنا إنه نور الأنوار .

ـ جيد .

ـ وولده هو النور القاهر .

ـ وما صلة الأب بالابن ؟

فكرت . . وتذكرت ما كنت قد قرأت في كتب الفلسفة وتساءلت :

ـ هل للموضوع علاقة بمصطلحات الفلسفة كالفيض والصدور ؟

عاد يقول بحماسة :

ـ أنت تتقدم . . وبعد ؟

ـ أما شقيق أنور . .

قاطعني قائلاً :

ـ ما معنى كون الأب بائعاً للجبن ؟

فكرت فلم أصل إلى جواب ، فقال الشيخ :

ـ الجبن يصنع من اللبن ،وأوّل النبي عليه السلام اللبن بالعلم وأنا أؤله بالنور .

قلت بدهشة :

ـ وهل يمكن تغيير التأويل يا سيدي ؟

ـ لم لا ، التعبير كله وحي . صحيح أن هناك خطوطاً عريضة كالاستعانة بأسماء الأشخاص كما فعلنا ، أو الحرف التي يتقنونها ، إلا أن الوحي يبقى وحده المصدر والمعتمد . هذا ما جاء في القرآن . فلنعد إلى موضوعنا ، ما معنى الحديث عن الجبن في المنام لا اللبن ؟

عدت فأعلنت حيرتي فقال :

ـ الأمر له صلة بالمادة . إذا أوّلنا اللبن بالنور فهو الروح هو العقل المجرد ، أما الجبن فذو علاقة بالمادة ، وهو يصنع من اللبن .

قلت مستنبطاً :

ـ أي أن المادة مصنوعة من النور .

ـ بل قل أصلها نور . والآن قل لي لماذا رأيت أباً كنيته أبو أنور أي أبو النور لا النور نفسه .

قلبت شفتي مبتسماً فتابع الشيخ :

ـ أبو النور هو الله ، لأن الله لا يوصف حتى بالنور نفسه لأن النور صفته ، والصفة انبثاق وليست أصلاً ، ولهذا ترى أن بعض المذاهب الفلسفية كالغوصية والأفلاطونية المحدثة تنزه الله عن الاتصاف بأية صفة حتى صفة الوجود . أما الصوفية والفلاسفة المسلمون فلقد أثبتوا لله صفات . لقد نفى أفلوطين أن تكون لله صفة إلا الواحدية والخير ، وأدلى لهذا بأسباب تعد على الصعيد الفلسفي أسباباً وجيهة ، ولكن حسن نية أفلوطين التقت ههنا بحسن نية أرسطو الذي ظل يجرد الله وينزهه حتى عطله وجعل وجوده وعدم وجوده سواء . فالحياة مثلاً ، وهي أول صفة وجودية لله صفة لله ، وإن كان هو وهذه الصفة سواء . فلله اسم الحي ، فهو الحياة ، ولا تفريق بين صفة الحياة والله . والله هو الوجود لأنه إن لم يكن الله وجوداً فهذا يؤدي إلى القول إنه لا وجود ، واللاوجود عدم ، والله ليس بالعدم . والصفة الثانية العلم ، ونفى أفلوطين أن تكون لله هذه الصفة ، لأن الصفة تتطلب الموصوف ، والله ليس بحاجة إلى موصوف وإلا لحّد ذلك من كماله . . والحقيقة أن الصفة لا تنفصل عن الموصوف وإلا لما كانت صفة . وقولنا إن الله عليم ثم وجود ما يجب أن يتضمن انتشار صفة العلم عنه ، هذا القول لا يعني أن الله بحاجة إلى معلوم ليعلم ، إذ العلم والمعلوم هنا فلقتا بذرة وهي واحدة رغم فلقتيها . فالله عليم بمعنى أن هناك علماً ينتشر عنه . والعلم يقتضي حدثاً ، والحدث انبساط للكلي

العلمي . . ومَثَل هذا أستاذ يحاضر في طلابه عن حقيقة ما فهل الاستاذ بحاجة إلى طلابه لتكون له صفة العلم ؟ وهل الاستاذ أستاذ إن لم يكن له طلاب يعلمهم ؟ وما الأستاذية التي هي صفة الأستاذ إن لم يمارس دوره ويحتل كرسيه ؟ وكذلك قل في الارادة وبقية الصفات .

وما أورده أفلوطين من نقد يدور حول نقطة واحدة وهي تنزيه الله عن أن يكون بحاجة إلى محدثات ليمارس إمكاناته بها وفيها . وردنا على هذا التنزيه مثل ردنا على تثبيت صفة العلم لله . إن جميع الصفات المعنوية ، السلبية والإيجابية ، هي لله قطعاً ، لأنه لا تفريق بين الوجود والموجود ، أو بين المعقول والمحسوس . ومشكلة أفلوطين أنه علا بفلسفته إلى الواحد ثم لم يهبط الواحد في فلسفته من سمائه فظلت علّية الله علواً كبيراً وهوة لا يمكن عبورها ، وقد اعترف هو بهذا .

والصوفية لا تعطل صفات الله ، وهي لا تقول بتنزيه دون تشبيه ولا بتشبيه دون تنزيه . فإله لا صفات له إلا كونه واحداً وخيّراً هو أشبه بملك بلا رعية . والصوفيون لا يقولون إن صفات الله هي هو ولا يقولون إنها غيره . لقد جعلوا صفاته لا هو ولا غيره ، وهذا هو تنزيه الصوفية . وحين تكون الصفات غير الله فهي منفعلة بالله وهي قواه . . هذا ما قاله الأشاعرة ، بل إن ابن عربي تخطى هذه المرحلة وجعل صفات الله هي الله فلم يفرق .

والحقيقة إننا لا نجد لشرح هذه القضية سوى ضرب المثل لها . فإذا كان الله محيط دائرة العجلة فالقضبان قوامها ، وإذا كان الله القضبان فالإطار الصفات ، وواضح أن لا سبيل إلى الفصل بين الإطار والقضبان ، لأن من كليهما تكون العجلة . فقولنا بإله مع نفي الصفات عنه كقولنا بعجلة نزعنا منها قضبانها وقولنا بقضبان لا إطار لها يجمعها ويثبتها يعني أن العجلة لم تعد عجلة . ومهما ضرب من مثل تبق اللغة محدودة .

والخلاصة أن الله صفات ، ولا يمكن وصف الله إلا بها . ونحن إن لم نصف الله بصفات ، وقلنا كما قال أفلوطين إنه واحد وخيّر فقط نكن قد أثمنا في

حق الله بدلاً من تنزيهه بدافع حسن النية .

وسكت الشيخ قليلاً وهو يأخذ نفساً عميقاً ، ثم سألني :

ـ والآن أخبرني عن صلة الابن بأبيه ، أي عن صلة أنور بأبي أنور .

قلت :

ـ الصلة صلة أبوة .

ـ وما صلة الأبوة ؟

ـ لولا الأب ما كان الإبن .

ـ جميل . وما معنى أنور وأبو أنور ؟

ـ معناه ما قلته أنت عن النور الذي هو عقل، فأنور هنا هو عقل، وهو العقل الفعال في الفلسفة ، وهذا العقل صادر عن الله أو فائض كما يقول أفلوطين ، فلا قوام لهذا العقل إلا بالله .

ـ ولماذا كان الإبن يضع على عينيه نظارة ؟

قلت مازحاً :

ـ لا بد أنه يشكو قصراً في النظر .

حملق الشيخ إلي قليلاً ثم ضحك . . ضحك بقوة وبراءة كما لو كان طفلاً ، وجعل يهز رأسه شمالاً ويمنة ماسحاً دمعه . . ثم سألني :

ـ أين توضع النظارة ؟

ـ على العين .

ـ وما العين في الفلسفة ؟

ـ الذات .

ـ جيد ، والذات الصفة ، والصفة صورة ، والصورة عقل لهذا رأينا أنور يضع نظارة على عينيه ، والنظارة شفافة ، فالعين إذن شفافة ، وفي هذا إشارة إلى أن النور شفاف أو لطيف ، وهذا يعني أننا ما زلنا في عالم العقل الصرف دون الاتصال بالمادة أو المحسوسات . والعين هنا جامعة ، ودل على هذا أن

الابن اسمه أنور ، بمعنى أفعل ، فالعين إذن نورانية فاعلة جامعة للصفات الإلهية بالقوة فالصفات موجودة فيها ضمناً . فالنور يحمل في طياته جميع ما سيظهر في عالم المحسوسات من عيون صارت عياناً ، ولولا النور ما كان للمادة أن تتخذ الصور التي كانت موجودة في النور ، فالنور هو الأصل .

أما صلة الابن بأبيه فهي صلة ارتباط وتناسل . وقال الغنوصيون بالولادة توضيحاً لصدور الأشياء عن الواحد فكان النقد الذي وجد إليهم أنهم صوروا المسألة تصويراً غامضاً غير دقيق ، وأن مسألة الولادة وصلة الابن بالأب لا تكفي لتوضيح هذه العلاقة . والحقيقة أن الإبن كان الواسطة بين الخالق والخلق ، ولولا الإبن ما كان للخالق أن ينقل ما في بذرته من إمكانات إلى عالم الخلق . فالابن واسطة النقل والواسطة للنور الآخذ عن أبيه إمكاناته ، والناقل إلى عالم الكثرة هذه الإمكانات عن طريق انتشار نوراني لطيف في جميع الجهات ، وسمى الصوفيون هذا النور النور الجامع ، أو النور القاهر ، أو العين الجامعة ، أو عين الجمع ، أو الجبروت لوجود كل عيون الصفات فيه .

والنور الأول في الفلسفة ، أو الواحد ، هو أول انبثاق عن الأحد بمعنى الانتشار إذن ، وهذا النور أول ما خلق الله لقوله في الحديث المقدسي : لما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز إلي منك ، بك آخذ ، وبك أعطي وبك أحاسب. فالنور العقل ، والعقل فضٌ للذات لإخراج المقتضيات . فالذات قبل الفض هي الدرة المكنونة ، وهي بعد الفضُ الدرة الظاهرة وجوداً . والدرة الجامعة در ، والدر تكثر ، ولهذا كان النور ـ العقل قابلاً لأن يكون متكثراً عقلانياً ، ومن هنا كان العقل الكلي منبثاً في الكثرة . فهو من جهة العلو مع الواحد ، وهو من جهة السفل مع الكثرة مع احتفاظه بوحدته نحن إذا قلنا (تفاح) فالتفاح جمع ، والكلمة مفرد ، وهذا هو الحال بالنسبة إلى النور ـ العقل . فالجمع بين طرفي الواحد والكثرة هو من مهمات النور العقلاني الأول . وهذا النور ثابت ، وطرفه المتكثر متغير وهذا النور قديم بمعنى انبثاق الحركة بفرعيها الزماني والمكاني عنه . وهذا النور حامل كل محمول لأنه قوام الوجود .

أنت ترى إذا احتكمت إلى ضميرك احتكمت إلى الكلي ومبدأ المبادىء وقوام كل المبادىء ، ولهذا كان حكم الضمير هو حكم أخلاقي جامع تام ، وهو قبل كل شيء خير وصالح للتطبيق . ومن هنا كان ظهور الله في الواحد ظهور الخير الإلهي وظهور الجمال الإلهي وظهور الوحدة الإلهية ، وقبل هذا كله هو ظهور الوجود الإلهي . ولهذا فإن كل صورة لله ظهرت في هذا الخلق الأسمى المسمى دينياً آدم وفيه قال سبحانه : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالواسبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

فالنور الأول حامل في هويته مبادىء الكليات التي هي الأسماء بالقوة . وتشبه هذه المبادىء ما تحمله البذور من صور بالقوة صائرة إلى التحقق بالفعل . وكل المقولات الإلهية ضُمّنت هذا النور الجامع ولهذا وصف بالجمع الذي هو في الوقت ذاته وحدة .

وللابن أنور كما رأيت في الرؤ يا شقيقٌ هو نور أيضاً . والشقيق من شق واشتق ، فهو اشتقاق من النور . وتشير الأصابع إلى بدء انتشار النور في الجهات ، إذ تتفرق الأصابع عن الواحد إلى أعداد ، ومن هذه الأعداد رأينا أمواجاً كهربائية . فالنور المشتق هو إذن النور الكثيف الذي هو أساس الهبوط أو العالم المادي والأمواج الكهربائية كما أثبت العلم الحديث هي قوام العالم المادي ، ولا قيام لهذا العالم إلا بها ، ولا حفاظ له إلا بواسطتها . . بل لقد أثبتت الاكتشافات الفيزيائية أن المظهر المادي وهمي وأن أصلها كهارب وكهيربات وأن هذا الأصل الجوهر . ومعنى الاشتقاق أيضاً أن العالم المحسوس مثل العالم المعقول ، أو هو تعين العالم المعقول ، أو هو عيان العالم المعقول ، وأن هذا العالم صورة عن العالم المعقول إذ الشقيق شق من أخيه ولهذا جاء في الحديث أن الله خلق آدم على صورته ومثاله .

وهذا الشقيق هو الجامع بين عالمي المعقول والمحسوس ، فهو ينتمي إلى عالم المعقول النوراني لأنه مشتق منه كما قلنا ولأنه أخذ عنه قواه . . أما انتماؤه إلى عالم المحسوس أو عالم العناصر فلأن تكثف العالم المادي تم عبر أصابعه ، والأصابع انتشار فكل قوى عالم العناصر خرجت أهلاً من أمواج كهربائية رئيت تنطلق من رؤوس أصابع ، والأصابع جهات ، وأصلها اليد ، واليد واحدة . فالكهرباء إذن ، وهي قوام الوجود المادي كله ، هي قوة نورانية عقلية وإلا لما كانت كهرباء . . وكل القوانين التي اكتشفت لهذه الطاقة موجودة ضمناً في هذه الطاقة التي لولا تحركها واكتشافها لظلت طاقة كامنة مستسرة حكمها حكم الأموات .

وسمي هذا الشقيق النفس الكلية ، لأن النفس الكلية هي الجسر الممدود بين عالمي المعقول والمحسوس . . فهي ظهور النور المعقول وتحويله إلى مادة ذات صور . ولهذه الأسباب ظهرت النفس الكلية باسم شقيق ، فهي مشتقة من النور ، وهي نور ، وهي تكثف لهذا النور كما قلنا بتحول النور اللطيف إلى نور كثيف هو الكهرباء .

ومبدأ النفس الكلية إذن الحركة ، والحركة انتشار ، والانتشار ينشىء المكان ، والمكان ملازم للزمان . وقيل في وصف الطاقة إن لها ذبذبة ، والذبذبة تحرك ، فأنت ترى أن النفس الكلية هي النفس الحيوانية بمعنى الحياة ، والحياة تنفس ، والتنفس نَفسْ تتحرك أو تحرك . فمبدأ الحياة منطلق إذن من هذه النفس التي هي بدورها ضرورة للصور المفتقرة إلى الحركة وبالتالي إلى الحياة . وقد يقال : كيف تكون الصور موجودة وهي غير حية والجواب أن الصور ماهيات ، والماهيات موجودة ضمناً في النور ، والنور قبل تكثفه لا يمكن أن يوصف بالحياة لأنه هو الحياة ، فالنور حي ، والحياة تنبثق عنه ، ولهذا اشتقت النفس الكلية أو الحيوانية من أخيها النور .

النور الأصلي ساكن كالطيف ، وانشقاق هذا النور ، وهو ما عبرنا عنه بالتكثف هو بدء الحركة . ولقد كان العلم الحديث أكبر الأثر في اكتشاف عالم التكثف هذا . فثمة قوانين للتكثف ظهرت في عالم المادة والعناصر ، وهذه

الـقوانين منبثقـة أصلاً عن المـاهية الأصليـة للنور ، وفي هـذا النور كـل قوانـين الحركة من فيزياء وكيمياء وما شابه . وما من شك في أن العلماء جميعـاً ، مؤمنين وملحدين ، متفقون على أن لا خروج عـلى هذه القـوانين الـوجوديـة وعلى أن لا مجال لتغيير هذه القوانـين . فالعلماء هم إذن إزاء معـادلات تفض نفسها في عـالم العناصر ، وهذا ما أردنا قوله بالضبط عن عالم الصور التي تحمل قوانينهـا فيها ، وهي بحاجة إلى حركة لتعمل هذه القوانين عملها .

تصور لو أن أديسون لم يكتشف المصباح الكهـربائي ، وتصـور بالتـالي أن كل المكتشفات والاختراعات القائمة على الكهرباء قد ظلت في طي الكتمان . . تصور هذا تجد أن الإنسان إذا ما أخبر بوجود طـاقة كـالكهربـاء ، لها مـا لها من قوى وآثار ، ومـع هذا فهـو لم ير هـذه القوى وهـذه الآثار ، فهـل كان يصـدق بوجود هذه الطاقة ؟

من أجل هذا احتـاجت الصورة إلى الحـركة مثلما احتـاجت الكهربـاء إلى دفع كدفع العنفات بقوة الماء السـاقط لتدور وتخـرج الكهربـاء . الصور سـاكنة ولكنها القانون وعالم العناصر متحرك ولكنه المنفعل والمظهر للقانون .